الربط الموضوعي ودلالته في سورة التوبة

أ. م. د. عواطف كنوش مصطفى م. م. ليث داود سلمان

المدخـل :

يدرس هذا البحث الروابط في الجملة او الجملتين التي يتحقق الكلام بها ولا يغفل الرابط الواحد الذي يكفي في اتساق الكلام وانسجامه وان كان غيره في النص يؤدي الغرض نفسه حتى بغياب الرابط الأول مثل (آل) الرابطة عند الكوفيين ، نجد ان الربط والانسجام يتحقق بغيرها كما في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(٤٠)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١) ﴾ ٧٩ / ٤٠-٤١ .

ويعتمد البحث على الربط الأكثر ظهورا ً او فعالية في تأدية الدلالة والوظيفة فضلاً عن انطباق النمط عليه - في الأمثلة التي تحتوي أكثر من رابط وقد نجد العكس في أمثلة قليلة ، والسبب في ذلك واضح ، وهو انها تستعمل للربط لكنها ليست بقوة الروابط الأخرى التي تجعل النص أكثر تماسكا ً مثل عطف الجمل ، والشرط ، والقسم .

ان البحث قسم الروابط الموجودة في السورة على قسمين ، داخلية وخارجية، الداخلية حصيلة الربط المعنوي (المستفيد من بعض التوابع او المنزل منزلتها ومنها الربط السببي، والربط بجواب الطلب، والربط بالالتفات، والربط بالعموم والربط الحسي المتمثل بالربط بالحرف والربط بالضمير ، والربط بالإشارة والربط بالتكرار ، والربط بأسماء الشرط ، والربط بما دام ، والربط بالقسم .

وقد اعتمد البحث على مصادر كثيرة في تخريج المادة منها كتب النحو قديمها وحديثها ، وكتب البلاغة ، وعلوم القرآن ، والتفاسير ، التي تقوم بالوظيفة المهمة في استخراج الدلالة .

وأخيرا ان البحث لا يدعي الشمول لجميع الروابط التي شاركت في اتساق النصوص الموجودة في التراث العربي وفي سورة التوبة وهذا ما يجعل الباب مفتوحاً لمن أراد الاستدراك على المنهج او التعرض له بالنقد والتصحيح .

ان إيجاد العقل الذي هو منحة ربانية من سنخية ملكوتية ، وتميزه من غيره من الممكنات هو لإخضاع الموجودات في نظام متكامل متسق يربو الى سنخيته . وهذا النظام ناقص لم يشفعه بإيجاد وسيلة تواصلية تفاعلية قائمة على الفهم والإفهام تتمثل باللغة ، وهي ضرورية لانها ((ظاهرة بيسكولوجية اجتماعية ، ثقافية مكتسبة لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن ، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما ان تتفاهم وتتفاعل))[٨] .ولولاها ما استطاع الفرد الاتصال بأقرانه ، والتعبير عن حاجته وأفكاره، وما تتهيج به قريحته من فرح او حزن على وفق اجتماعيته ومدنيته التي اقتضاه طبعه وفطرته ، وبها يستطيع الاتصال بالواجب . ولعلمه تعالى بحاجة عباده إلى أسماء يعرف بها ، جعل لذاته المقدسة عدة أسماء ، لان المخلوق يلوذ بخالقه ومربيه في جميع شؤونه وحاجاته بالدعاء . ومن جراء هذا الانفعال اثر الاتصال يصبح خلد الإنسان مخزناً ومستودعاً للمفهومات الخارجية التي تنقلها اليه الحواس . فيترجم العقل هذه المنتزعات من حقائق الأشياء الى أفكار ومعان ذهنية حتى يكون مستعداً للاتصال بواقعه الخارجي عن طريق خلق أجساد لهذه المعاني والأفكار. وهي تتمثل بالألفاظ التي هي الوسيلة الوحيدة التي تنقل هذه الخواطر للتعبير عن مكنونات النفس وحاجاتها ومقاصدها وغاياتها ، لكن هذه الألفاظ تتفاوت من حيث اختيار المتكلم وتأدية مقاصده على مستويات ثلاث .

مستويات التعبير عن المنشئ :

يجد المنشئ نفسه أمام قوالب ثلاثة جاهزة ، يستطيع ان يبث فيها أفكاره ، وحاجاته ومشاعره ، وعواطفه ، وهذه القوالب أوجدها نظامه اللغوي ، حتى لا تكون اللغة عاجزة عن التعبير والإفصاح عن المعاني الذهنية وهي :

المستوى الأول :

هو عبارة عن ابسط وحدة إخطارية تعبيرية عن غاياتها ، يتمثل هذا المستوى بالجملة ، كأن يكون الأخبار عن الجوع والعطش والألم والفرح ، او إيجاد علاقة إنشائية كالأمر والنهي والتمني والعرض . فمثلا ً اذا قال (انا جائع) فان العلم الحضوري الذي يحصل لدى الإنسان من جراء شعوره بالجوع ، يدفعه الى إيجاد هذه الفكرة بالنظم .

المستوى الثاني :

في هذا المستوى تحتاج الفكرة او المعنى الذهني في انتقاله الى العلم الخارجي الى علاقة مركبة ، وإحداث ممتزجة ، كتعليق الفكرة بحدثين ، او امتزاج مضمون جملتين ، او خلق علاقة قائمة على طرفين .

ولسائل يسأل هل الله عز وجل خاطبنا على هذين المستويين في القرآن الكريم ؟ لقد خاطبنا الله سبحانه وتعالى بكلا هذين المستويين ، بلحاظ نزول الآية - التي هي مصداق احد المستويين - على رسول الله (ﷺ) منفردة مستقلة في دلالتها على هدف ، او ترمي الى معنى . ولكن لما كانت جميع هذه الآيات مندرجة تحت جو السورة العام ، وتوقيفية [٩] ترتيبها داخلها . اوجب علينا دراستها في ضمن هذا سياق السورة لبيان كيفية تحقق الربط فيما بين الآيات لكشف الغاية التي تحملها السورة ، الذي تريد الإفصاح عنه ، فمثلا ً الله عز وجل لا يريد الأخبار عن صمدية الله حسب ، وإنما ذكرها باستقلالها ودلالتها ينجذب نحو الهدف الكبير الذي هو فوق مستوى الجملة ، والا لو كان المعنى تاما ً منفردا ً لما ضمت إلى غيرها من الآيات داخل السور.

المستوى الثالث :

في هذا المستوى يرتفع الأمر أكثر من ذلك تصاعديا ً ، بان تكون الفكرة او المعنى الذهني بحاجة إلى تكثيف وتكثير في الألفاظ لقصد المنشئ او المتكلم لها ، ولا سيما أذا تعلق الأمر بأهمية الفكرة، وما لها من منزلة. فيتطلب البيان والإجلاء تكثيفاً وتفصيلاً سلباً او إيجاباً .

ويظهر هذا جليا ً في الخطيب المصقع ، والشاعر المفلق في حدود دائرة الإمكان . اما الواجب فلا يتكلم الا لمقتضى ، لان الكلام اختياري بالنسبة له .

فمثلاً السورة المكية لا تتطلب التكثيف والتفصيل على خلاف السور المدنية التي تحتاج إلى تفصيل وتكثيف في الأحكام والتشريع على وقف حال المرحلة والبيئة، فضلاً عن ذلك انه اذا عرض فكرة كالتوحيد وغيرها لا يدعها حتى تهيمن على السامع او القارئ ، وتجتذبه اليها بالبراهين والأدلة الافاقية والانفسية حتى يتبين لهم الحق . وهذا المستوى يسمى بالربط الموضوعي ، او الربط البنائي .

وهو ربط تتآزر فيه الآيات والجمل ، وتتسق لتكون لنا موضوعا ً ذا فائدة يرمي إلى هدف ويكون على مستوى السورة .

الربط الموضوعي دراسة وتطبيق :

تتضمن دراسة الربط الموضوعي جملة من العنوانات يجب معرفتها لأنها تمثل جزءا ً أساسا ً في الموضوع ، وبمعرفتها يستطيع القارئ ان يتدرج في معرفة أبعاد هذا النحو من الربط في القرآن الكريم ، وهي تمثل مقدمة تفصيلية للشروع في تطبيق هذا النحو من الربط ، فإذا ما عرف القارئ هذه العنوانات تجلى له التطبيق سهلاً واضحاً . وهي :

الربط الموضوعي والسور القرآنية :

لا ريب ان لكل سورة غاية ، وأنها تحمل فكرة واحدة ، وأنها مترابطة موضوعياً من أمور :

((إجماع العلماء على ان ترتيب الآيات في السور توفيقي)) [١٠] . وهو يفضي الى تحقق غايته ، لان الحكيم لا يتكلم الا تبعا ً لأفكاره المتسلسلة المنتظمة التي تصبو الى هدف واحد ، ومطابقة كلامه لمقتضى الحال ، او لمطابقة الحق أيا ً كان المخاطب ، وبعدمه تنتفي المتابعة والمواصلة في تتبع الأفكار والمعاني ، وهذا عديم في الممكن ، فكيف الحال بالواجب ؟ ! .

ان تقطيع السور الى آيات وحصرها في وحدة مستقلة قائمة بذاتها دليل وحدتها ، والا فلا معنى للحصر والتقيد ، واطلاق العنوان عليها تحيزا لها عن غيرها ، اذا لم يكن هناك مقتضى لذلك ، ولاستطعنا ان ننقل آية من سورة الى أخرى من دون ان يحدث خلل او فساد في النظم .

ان القرآن هو كتاب هداية وتشريع قبل ان يكون كتاب أدب وعلم . ينظم الحياة من جميع جهاتها ، ويسعى لكشف وإجلاء الرين وما تشبث به من مثالب ورذائل ، وطباع أرضية حيوانية ، حتى تخلصه إلى الحقيقة الكامنة التي يسعى اليها جميع المرسلين والمبشرين والصالحين التي هي أمهات الفضائل والقيم الأخلاقية كالتوحيد والنبوة والصبر والأمانة والشكر والحلم والعدل والاستقامة ، فاحتواء اية سورة على مضمون من هذه المضامين دليل وحدتها ، فلا تكون السورة متشعبة الموضوعات من دون جامع أخلاقي يسمو بها نحو غاية واحدة تسعى لخدمتها كالقصص والأمثال والمشاهد .

ذهاب جل من العلماء الى إيجاد نحو من علوم مندرج تحت علوم القران يسمى علم المناسبة او التناسب بين الآيات، فيستفيضون بالشرح والتبيين لإيصال علاقة الآية بما قبلها وبما بعدها من الآيات التي تبدو للوهلة الأولى أنها منفصلة عما قبلها .

كما فعل الباقلاني في إعجازه ، والطبرسي والرازي في تفسيريهما . والشاطبي في الموافقات ، والزركشي في البرهان ، والسيوطي في الإتقان ، وعبد الله الغماري في جواهر البيان ، والمراغي في تفسيره وعبد الله دراز في النبأ العظيم ... الخ .

وهذا الربط متفاوت من سورة الى سورة لان السور على أقسام ثلاثة :

١. السور القصار : وهي السور التي لا تتجاوز عددا كبيرا من الآيات ، وإنما تقتصر على بضع آيات كسورة الإخلاص ، والفلق ، والناس .... الخ وهذا النوع من السور وحدته الموضوعية جلية ، غالبا ما تكشف عن هدفها الرئيس من اسمها المنتزع من مضمونها ، كسورة النصر التي تتحدث عن النصر ولازمه ونتيجته .

٢ . السور المتوسطة : هي السور التي تزيد آياتها على السور القصار ، كالطور والملك ، والنجم ، والواقعة ، والرحمن .... الخ وهي لا تكد الذهن كثيراً ، ولا تكل العقل في إيجاد وحدتها وهدفها ، والقطب الرابط بجملها وآياتها . فمثلاً سورة الرحمن تتحدث عن آلاء الله(*) وسورة المنافقين تتحدث عن هذه الشريحة(١١) . وسورة نوح تتحدث عن حاله في تبليغ الدعوة وما لاقاه من صدود قومه ، وسورة القمر للإنذار والتذكير بعقاب الله وسخطه بإزاء المعاندين والجاحدين . وقد ظهر هذا من القطب الذي تدور حوله الآيات والجمل .

٣ . السور الطوال : وهي السور التي تزيد آياتها ضعف السور المتوسطة كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأنعام ....

ويجد الباحث في هذه السور نصباً ، وعناءً ، وعنتاً ، ومشقة ، في كشف مضمونها وهدفها وغايتها ، لأنها تحتوي على مجموعة من المضامين الفرعية ، والموضوعات الثانوية المتصلة بالغرض الرئيس . فاتحادها في تكوينها ، وإيجاد مناسبة في آياتها ومعانيها يتطلب ترابطها فيما بينها وسيأتي بيان ذلك في تطبيق سورة التوبة .

وتعد دراسة الربط الحسي والمعنوي وسيلة للوصول إلى الربط الموضوعي لان هذا الربط يتكون من جمل وتراكيب متوالية من اجل توليد النص او الموضوع فيفصح بذلك عن إرادة المنشئ لإنتاج هذا الربط كما في الخطب والرسائل .

اذن علاقة الربط الموضوعي بالربط الحسي والمعنوي هي علاقة بناء وتوليد، علاقة ترابط الجزئيات المؤدي إلى الوحدة الكلية ، الذي تجتمع فيه حصيلة دلالات الربط في المسلكين السابقين للانتقال الى الفكرة النهائية في السورة بشكل تام.

الربط الموضوعي والموضوعات الفرعية :

يلحظ في السور الطوال موضوعات فرعية مستقلة في دلالتها عن المعنى المقصود ، ومترابطة داخلياً، ومتماسكة سياقياً تنتظم انتظاماً يجعلها وحدة موضوعية لها هدف وغرض ، ينصهر غرضها مع موضوع السورة العام ، أي ان هذا الربط غايته ليست لذاته وإنما هو تتميم للغرض الأم الذي تحمله السور . وهي حقول موضوعية تمثل البنية الكبرى للنص ، وهذه الحقول متفاوتة في بنيتها الداخلية ، وإطارها العرفي الذي تحمله ، وكل حقل من هذه الحقول يقوم بمهمته على أحسن وجه من حيث الغرض والغاية داخل السورة ، وهذه الموضوعات الفرعية يجب معرفتها لأنها تمثل جزءاً أساساً في السور ، وهي :

القصـــة :

تميل النفس الإنسانية الى قراءة القصة او سماعها من عالمها وجاهلها لما تؤديه من متعة ناجمة من مجموعة مقومات فنية يرتكز عليها البناء القصصي في مختلف ألوانه مثل السرد المتدرج في سياق تصاعدي مشوق، وحبك الحادثة النموذجية المتصلة اتصالاً وثيقاً بحياة الناس واهتماماتهم ، وفائدتها المستنتجة من سياقها ، وتسلسل خواتيمها [١٢]. فترابطها أمر وجداني يحسه القارئ في نفسه ، لما يراه من تسلسل أحداثها وتواليها أي انتقال الحديث تدريجياً ، وما يرافقه من انتقال في القطعات الزمانية ، وانحصارها بأشخاص معينين ، وبيئة محددة ، تجعل القارئ كلما قرأ بعضاً منها تاق الى معرفة تاليه ، بغية الوصول الى نهاية المطاف ، كي ينجم ويتجلى الغرض والهدف منها .

وهي تساق في المقام، لأغراض دينية شتى منها عقائدية كقصة أهل الكهف ، ومنها أخلاقية تحمل مضامين العفة والخفر ، والصبر والحلم ، كقصة يوسف (عليه السلام) وقصة أيوب (عليه السلام) وقصة بلقيس، وقصة موسى (عليه السلام) مع الخضر (عليه السلام) يقول سيد قطب ((تناولت من هذه الأغراض عدداً وفيراً من الصعب استقصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب الى جميع الأغراض القرآنية فإثبات الوحي، والرسالة، واثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في أساسها والإنذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر والصبر والجزع والشكر والبطر ....)) [١٣] فهذه المفاهيم التي هي أغراض

للقصص القرآني تمثل وحدة موضوعية بذاتها لغيرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ١٢ / ١١١ فهذه العبرة هي المستفاد منها في تضاعيف كلامه تعالى في السور القرآنية . فتخدم بذلك الهدف الأم .

فمثلاً سورة الكهف هي إحدى السور التي تفسح المجال لتفصيل الحديث عن خضوع القصة في القرآن للغرض الديني ، ففيها أقاصيص ثلاث تصحح عقائد المؤمنين في شؤون الغيب ، وتفصل لهم بين ما يرقى علمهم اليه وما لا يعرفونه الا اذا كشف الله عن أبصارهم كقصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى مع العبد الصالح ، وقصة ذي القرنين [١٤] . وهي في هذا ترتبط مع جو السورة العام لتؤدي غرضاً واحداً وهو بناء العقيدة بناء سليماً في أثبات الوحدانية ، والفصل الواضح بين ذات الخالق وذات المخلوق ، وكشف الحجب عن ظاهرة الوحي وأسرارها المعجزة العجيبة [١٥] . اذا ترابط القصة الداخلي قد ساعد على ترابط الموضوع الخارجي .

الحـــوار :

((هو ان يتناول الحديث طرفان فأكثر عن طريق السؤال والجواب بشرط وحدة الموضوع او الهدف، فيتبادلا النقاش حول أمر معين وقد يصلان إلى نتيجة، وقد لا يقنع احدهما الأخر، ولكن السامع يأخذ العبرة ويكون لنفسه موقفاً))[١٦] ويكون اما بين الممكنات او بينهما وبين الواجب. وهذا الحوار يجعل الكلام مترابطاً ، والسياق متسقاً منسجماً ، يحمل فكرة ذات هدف وفائدة ، مشكلة بذلك جزءاً من الربط العام في السورة بوصفه نصاً قائماً على سياق ، وهو قريب من القصة ومن أمثلته محاورة الله عز وجل وابليس عليه اللعنة .

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ الْعَالِينَ(٧٥)قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦)قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧)وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨)قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩)قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ(٨٠)إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٨١)قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤)لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥)﴾ ٣٨ / ٧٥ ـ ٨٥ .

يتجلى الربط في هذا الحقل من حجز المحاورة بين طرفين حول موضوع واحد وهو السجود لأدم واستمراره لبيان علة الإقناع ، فالقارئ لا يجد نفسه بعيدا عن النص يلتمس له وجوها لربط تراكيبه وجمله ، وإنما تكرار مادة القول وحصرها بين طرفين قد اذن بترابطه .

والحوار في هذا النص هو حوار الجاحدين قد جاء لغايات وأهداف منها :-

اخذ العبرة والعظة من عصيان ابليس لله عز وجل .

طمأنة النبي (ﷺ) والمؤمنين من الكفار .

بيان النوعية التي يخدعها ابليس .

التحذير من عداوة ابليس والشياطين والتنبيه على سبلهم [١٧] .

فالغاية المستفادة من ترابط هذا الحق تتمم الهدف والغاية من الربط العام في السورة .

الأمثـــال :

وهي نصوص تحمل أفكاراً ترمي الى هدف كالوعظ والإرشاد والزهد، وإظهار الحق ، وإزهاق الباطل ، وهي في ترابطها وانسجامها تشبه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب وتقرب البعيد [١٨] .

تتكون من حالتين وعلاقة بينهما. الحالة الأولى هي التي يضرب بها المثل في الأصل، والثانية هي التي ذكر فيها المثل مرة أخرى، والعلاقة الحاصلة بين الحالتين هو الشبه الحاصل بين الحالة الأولى والثانية[١٩]. وهي تحمل مضامين وأغراض[٢٠] .

قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٩/ ٢٩

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد [٢١] .

ترابط المثل واضح من خلال تجسيد هيأة خارجية ومقارنتها بهيأة أخرى ، لتقريبها الى الأذهان ، فسياقه واحد متسق ، وجمله متسقة مترابطة تحكي غرضا يقصده المنشئ من ضربه للمثل .

اما وظيفة الربط في المثل فهي عقلية ، تجسد صورة ماثله أمام العين من اتخذ آلهة متعددة ، هذا يأمره بكذا ، وذاك ينهاه عن كذا ومن اتخذ إلهاً واحداً فهو في امن من هذا التنازع الحاصل بين الآلهة ، فلا يفعل الا ما يأمره اله الحق . وهي صور يستدل بها العقل على فساد الآلهة[٢٢]. فدلالة هذا المثل تنصهر مع هدف السورة العام لأنه واقع في سياق يتمم احدهما الآخر .

المشاهد والتصويرات :

من جملة المفاهيم التي تساعد على اتساق النص الكبير المشاهد والتصويرات التي تجعل الذهن مشدوداً اليها لتعالق أجزاء الصورة بعضها ببعض وتألفها مما يجعل القارئ مستشعراً بحقيقة المشهد ، وكأنه متحقق فعلاً خارجاً فيلوذ بالله ان كان مخفياً ويرغب في العمل اذا كان مشهداً من مشاهد الجنة ونعيمها. فيتحقق من جراء هذه المشاهد جزء من الهدف الذي يرمي اليه .

قال سيد قطب ((من سمة المشاهد انها حاضرة اليوم تراها العين وتحسها النفس ، والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب)) [٢٣] وقال ايضاً ((لقد عني القرآن بمشاهد القيامة ، البعث والحساب والنعيم والعذاب فلم يعد ذلك العالم الاخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفاً فحسب ، بل عاد مصورا محسوساً، وحياً متحركاً، وبارزاً شاخصاً ، وعاش المسلمون في هذا العام عيشة كاملة رأوا مشاهده وتأثروا بها وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى في نفوسهم الفزع مرة وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورق لهم من الجنة نسيم)) [٢٤] .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩)يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠)كَلَّا لَا وَزَرَ(١١)إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ(١٢)يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(١٣)بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥) ﴾ ٧٥ / ٧ - ١٥ .

في هذه الآيات مشهد لهول القيامة ، تشترك فيه الحواس الإنسانية ، والمشاهد الكونية، والنفس البشرية، فالبصر يخطف، والقمر يخسف، والشمس والقمر تجمع ، وقد انفرط نظام الكون ، وفي وسط الذعر والانقلاب يتساءل الإنسان

المرعوب اين المفر فلا ملجأ ولا مستقر ، والمرجع الى الله ، حيث ينبئ الإنسان بما قدم واخر ولا تقبل منه المعاذير وهو على نفسه بصير [٢٥] .

ان وظيفة هذا النص المترابط هي وظيفة نفسية تجعل النفس تهش وتلين وتخشع وتتواضع أمام هذه المشاهد المذهلة المرعبة ، فلا تقوى النفس المتكبرة على تحملها وطاقتها ، فيخشع للحق ويبتعد عن كل ما هو باطل . فتظهر هذه الوظيفة ما تحمله السورة من مضامين اخرى من اجل تحقق الهدف العام والربط الموضوعي .

بعض النصوص التي تتضمن هدفاً مستقلاً :

يلحظ في القرآن الكريم بعض النصوص التي ترابط داخليا ، وتتفاعل بغرضها والموضوع العام كالوصايا والأوامر وغيرها ، ومن مصاديق هذه النصوص قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٢/ ٢٨٢

ان ترابط هذا النص واضح لان الجمل والتراكيب تدور حول قطب واحد وهو الوصية ، اما وظيفته فهي اجتماعية ترفع بالخلاف والتنازع الذي يحصل في بعض المعاملات، وتوفر وسائل الأمن بين أفرادها . ففيه ما يقرب من عشرين حكما تتعلق بأصول المعاملات والمعارضات كالبيع والدين والرهن ونحوها وهي قواعد نظامية ثابتة في فطرة العقلاء قررها سيد الأنبياء (ﷺ) بوحي من السماء وبمراعاتها يحفظ المال عن الضياع، ويرفع التنازع والاختلاف بين أفراد الإنسان ، ويصل كل ذي حق حقه[٢٦] .

ان هذه المفاهيم السالفة ترتبط بالبؤرة او القطب او الكلمة المحورية التي تدور حولها الآيات ولاسيما السور القرآنية الطوال ، فهي العين التي تصب بها جميع الروافد لتزويدها بالطاقات ، لإبراز الهدف واضحا ً جليا ً كاشفا ً عن نقابه ، رافعا ً عن لثامه فترتبط الآيات تكوينا ً من اجلها .

الربط الداخلي والربط الخارجي في السور :

ان السور الطوال تتكون من موضوعات فرعية ترتبط هذه الموضوعات لتكوين الهدف والربط العام من السورة، فحصل من جراء هذا رابطان داخلي وخارجي الأول يتكون داخل الموضوعات الفرعية في السورة بإحدى الوسائل الآتية مثل الاسناد ، والربط بالحرف ، والتكرار ، والضمير وغيرها تتفاعل فيما بينها لتكون لنا الموضوعات الفرعية التي تؤدي وظيفة معينة . وهي بدورها أي الموضوعات الفرعية تترابط خارجيا ً فيما بينها لتكون لنا الربط العام على مستوى السورة .

وبهذا يكون القرآن قد بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغا ً لا يدانيه أي كلام مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، وامتنانه ، وتلوينه في الموضوع الواحد فبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متأخذة الأجزاء ومتعانقة الآيات [٢٧] .

ومن وسائل الربط الخارجي :

١. التضاد او التقابل :

ان هذا النحو من الربط يجمع لنا بين فكرتين متقابلتين ، وهما متلازمتان أي انه عز وجل اذا ذكر أهل الجنة ، ذكر أهل النار ، ولهذا الربط فائدة وهي كما قيل وبضدها تتبين الأشياء [٢٨] . وهذا ما قالته الآيات الكريمة .

وقال تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(٤٣)طَعَامُ الْأَثِيمِ(٤٤)كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(٤٥)كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(٤٦)خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(٤٧)ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(٤٨)ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩)إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(٥٠)إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(٥١)فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٢)يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ(٥٣)﴾ ٤٤ / ٤٣ - ٥٣ .

٢ ـ المماثلة او التنظير :

ان هذا النحو من الربط يجمع لنا بين فكرتين متشابهتين كأن تكون في الحكم او في المعتقد او غيرها فمثلا ً يذكر الباري عز وجل الكفار ثم يذكر المنافقين كما في أوائل سورة البقرة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩)فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١)أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ(١٢)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ(١٣)وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(١٦)﴾ [٢٩] ٢ / ٦-١٦ .

وليس هذا الربط بمستغرب لان إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء [٣٠].

٣ ـ الاستطراد :

هو ((ذكر الشيء في غير محله ـ لمناسبة ـ بأن يخرج المتكلم من الكلام الذي هو مسترسل فيه الى غيره ـ باستدعاء مناسبة ـ ثم يرجع الى ما كان فيه))[٣١]. فهذه المناسبة هي المؤذنة بالربط . قال تعالى حاكيا ً نهاية قوم شعيب (عليه السلام) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩٤)كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ(٩٥)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٩٦)﴾ ١١ / ٩٤ ـ٩٦ .

وسورة هود تلك تحكي نهاية قوم نوح ، وهود وصالح ولوط وشعيب . وموسى (عليه السلام) وهذه الآية تحكي نهاية قوم شعيب بخاصة ، التي استغرقت أحداثها أثنتا عشر آية (من آية ٨٣ ـ ٩٥) وقد ختمت نهاية قوم هود ـ بأن أخذهم الله

بالصيحة فهلكوا غير مأسوف عليهم .... بقوله تعالى ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فقد اشتركا في الذنب وسوء التصرف فاستويا في سوء المنقلب ووخيم العاقبة . ثم رجعت الآية الى الحديث الأصلي وهو عرض لنهاية قوم موسى)) [٣٢] . هذا الكلام لا يخرج عن المماثلة والمشابهة .

وهناك روابط خارجية أخرى منها :

١ - محل النزول

قد يساعد محل النزول في معرفة الربط الخارجي للسورة كلها كأن يكون هذا المحل هو المدينة او مكة ، ولا يخفى ما لهذا الربط من حكمة ، وهي جعل النص يترابط ليس مجرد كونه خطابا فحسب بل للواقع الخارجي والحال التي عليها المجتمع دخل في تعالق النص ، لان النص لا يمكن ان يكون منطوقا تحت قوالب جاهزة ما لم يكن للواقع دخل فيه ، فمثلا سورة الإنسان لا يستطيع النص ان يصل إلى هذا المستوى من الانسجام والتعالق بين تضاعيفه لولا ما تضمنه الواقع من أحداث قد فرضت نفسها على القرآن فرضا ، تجسد قيم الحق والمثل والأخلاق . فتترجم هذه الأفعال في الواقع الى سورة محكمة داخليا ايما أحكام ، توظف قضية إنسانية خالدة مدى التاريخ .

٢ - العنوانات الخارجية للسورة

قد نستفيد من بعض العنوانات التي تطلق على السورة في الربط الخارجي . لان العنوان غالبا ما يستفيد من المضمون ، مثل القارعة والقيامة والأنبياء ، والا طبقنا قاعدة الترجيح بلا مرجح ، وقلنا من جراء ذلك بالاعتباط والجزافية .

إلى هنا ينتهي الحديث عن الربط الموضوعي الذي هو نهاية ما توصل اليه من ربط الآيات والجمل في حديث المنشئ على وفق تسلسل المعاني والأفكار في الذهن عند الضرورة التي توجب عليه ذلك . إذن النص الكبير او السور الطوال تحتوي على روابط داخلية وأخرى خارجية تجعل النص وحدة قائمة بذاتها منتظمة ايما انتظام وهذا هو الربط الموضوعي ، لكن هذا لا يمكن ان يجلي للقارئ هيكلا عاما للربط ، نصف فيه الروابط المماثلة في النص ، وجميع العوالق الخارجية له . الا اذا اخترنا أنموذجا من سور القرآن تنجم فيه مستويات الربط ويحس فيه القارئ

بشمولية المنهج بإطاره العام، وما يشعر به من إضافة وظائف الروابط الموصوفة مسبقاً الى النص العام ، لتحديد الهدف والغرض منه .

وقد وقع الاختيار على سورة التوبة لبواعث واقتضاء تنحصر بمستويين .

الأول : خارج عن مفهوم الربط وينحصر بأمور :

١- انها تمثل مرحلة الانتقال الفعلية من إقامة العهود والمواثيق والصلح مع الهويات التي كانت تعوق وتعرقل انتشار الإسلام والصراط المستقيم آنذاك إلى إقالتها ورفع السيف ، وقمع رؤوس الكفر وإزالتها من جزيرتهم بعد نفيهم وتقويضها .

٢- ان مضامينها تكشف عن السياسة الحكيمة المتبعة في كل جانب من جوانب الحياة . والمعاملة الحق مع سنخ العمل فمثلاً أهل الكتاب اما الدخول في الإسلام وأما دفع الجزية والقتال وهلم جرا . وهو أمر الذي يفتح الباب للاقتداء بالرسول في مثل هذه السياسات .

٣- انها سورة الابتلاء والامتحان والتمحيص لكشف حقائق الإيمان وإظهار مكارم الأخلاق ، وتميز الخبيث من الطيب ، والصالح من الطالح ، وهي نقطة الانقلاب او الحد بين الكفر والإيمان وهي المفارقة بين الطريقين .

٤- انها تمثل أنموذجاً للدولة التي شيدها الرسول (ﷺ) القائمة على ضوابط وأنظمة يحدد من جرائها الكيان الإسلامي ويميزه من سواه اثر الانقلاب على التفكك والانحلال الأخلاقي وتفشي الجهل والرذيلة .

٥- انها السورة التي جرد الله منها البسملة التي هي مظهر رحمته عز وجل ، فهي كالسالبة بانتفاء الموضوع ، تجعل الإنسان يتفكر ويتأمل ويسأل أي الأعمال من موجبات رحمته ، وأيهما من موجبات غضبه ونقمته المانع من وصول الرحمة ؟ فإذا علم هذا فعليه ان يعمل بما يدعو ويشمل موجبات رحمته . ويترك كل ما يدعو الى موجبات نقمته .

الثاني : يخص موضوع الربط والترابط وينحصر بأمور :

١- ان النص يدور حول أصناف ثلاثة من الناس (المشركين ، وأهل الكتاب ، والمنافقين) وهذه الأصناف يجمعها حقل دلالي واحد يجعل النص أكثر اتساقا وانسجاما وهو الكفر والعداء للإسلام .

٢- النص بعده محلا للموضوعات الفرعية ، يكشف لنا عن نوعين من الربط هما داخلي وخارجي ، يحققان تعالق أجزائهما الداخلية والخارجية ، وهذا ما يجعل السياق في النص واحدا .

٣- كثرت الربط المعنوي المتمثل بالإسناد ، للكشف عن أفعالهم العدائية التي تنقضي وتتجدد باستمرار ، فضلا عن ذلك مثالبهم الراسخة التي لا تزول ، يعرضها القرآن بشكل يجعل الذهنية متجهة نحوها لتقف على طرائقهم ومكائدهم وحيلهم.

٤- يلحظ في هذه النصوص الفرعية كثرت الضمائر - بشكل غير اعتيادي - التي تحيل إلى أقطاب هذه النصوص كالمشركين وأهل الكتاب .. وهذا ما يجعل النص يجري على سمت واحد ، فضلا عن فاء التفريع والإشارة اللذين يلعبان الدور نفسه في اتساق النص .

٥- كثرت الحروف العاطفة ولا سيما الواو التي تجمع لنا صفاتهم الخبيثة ، وأفعالهم الرذيلة، وأعمالهم المنكرة ، فينكشف القناع عنهم بعدما تستر بعضهم بالإسلام .

٦- تقارب المقطوعات في نسبة روابطها وأنواعها ، وهذا يقود الى نتيجة واحدة ، وهي الإفصاح عن غاية واحدة واصل واحد جذوره الإيمان بالله ورسوله والعمل بمقتضى هذا الإيمان، بعد استئصال جذور الشرك والرذيلة من نفوسهم ، فيترشح من جراء هذا وحدة الربط بين مقطوعاتها. وهذا ما نهدف اليه ونسعى إلى الحصول عليه .

دليل وحدتها إجمالا :

١ - محل النزول

ان هذه السورة نزلت بالمدينة خلا آيتين [٣٣] ، التي كانت محل شرائح مختلفة، وديانات متعددة مثل المنافقين ، واليهود والمشركين ، وهذه الانماط المتعددة والطبقات المتباينة تستدعي من الإسلام إيجاد قانون او نظام تشريعي يحدد علاقته او موقفه إزاءهم . فنجد الإسلام قد وضع القوانين والحقوق ، وفصل في الأحكام وإقامة الفرائض، لان المجتمع الجديد بحاجة إلى بناء وتقويم، فأحتاج المقام إلى هذا الأطناب والتفصيل [٣٤] . ومن هذا المنطلق قال الدكتور بدوي ان هدفها هو تحديد علاقة المسلمين بادعائهم من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين شأنها شأن بقية السور كالأنعام التي تدل على التوحيد والنبوة [٣٥] .

ولما كانت المرحلة المكية مرحلة عدم استقرار للأعداد والتذكير والتنبيه والتخويف لان بيضة الإسلام لم تتم وهذا شأن من شؤون الله في التدرج ، والطريقة التي تتبع في إقامة الإسلام، أعقبتها المرحلة المدنية التي هي مرحلة استقرار وركود تستلزم وضع الأنظمة والقوانين والأحكام والتشريع ، وإقامة الفرائض التي هي إمارة لقيام دولة الإسلام في ظل حكومة الله . حتى تخضد شوكة الكفر والرذيلة المتمثلة بالمشركين ، وكفار أهل الكتاب والمنافقين ، فتضحى هذه الحكومة للعدل والحق وهو عين الواجب .

٢ - أسماؤها

تحمل هذه السورة إمارات دالة ومفاهيم كاشفة عن مضامينها فتسمى فضلا عن التوبة، المشقشقه، والمبعثرة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والمنكلة والمدمرة، وسورة العذاب ، لان فيها التوبة على المؤمنين وهي تشقشق من النفاق ، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها ، وتحفر عنها وتفضحهم ، وتنكلهم وتشرد بهم وتخوفهم وتدمدم عليهم [٣٦] .وهي - اعني هذه العنوانات - مضامين السورة التي ترمي الى موضوعها العام ، ومن هنا قال صاحب التفسير الحديث ((في هذه السورة فصول عديدة ومتنوعة الا انها يجمعها طابع عام واحد وهو الحث على

الجهاد والحملة على المنافقين والكافرين والمشركين والثناء على المؤمنين المخلصين)) [٣١] .

التفصيل :

ان الفعل الإنساني هو سلوك واثر يكشف عن مؤثره لأنه مرتبط به وغير مفارق له . فأما ان يزين صاحبه وهذا من دواعي الحكمة والعقل والفطرة السليمة . واما ان يشين فاعله ويقبحه وهذا من دواهي الشيطان والنفس الإمارة بالسوء . فيتولد من هذا الأثر مناقب ومثالب تلازم صاحبه . فيستدل بها عليه . فمثلا نحكم على اثار العدل بالحسن . وعلى اثار الظلم بالقبح . وكذا نحكم على وجود الله في الخارج . وجواب الاعرابي مستقيم . ونحكم على نفي الشريك بنفي الفساد . والنظام المستلزم له . ومثله نحكم على أهل الخير بدواعيهم وآثارهم ومناقبهم . وأهل الكفر والنفاق بدواعيهم وآثارهم ومثالبهم . ومن هنا نجد ان السورة تكشف عن أنماط من الناس لكل منهم اثار يعرف بها ويحكم عليه . كي يتأمل أهل الأيمان الفعل القبيح ودواعيه وما يترتب عليه من حكم وما يحدثه من خلل في النظام ينبغي ازالته حتى تصلح حالهم وتنقى سريرتهم وتكون الفطرة طاهرة سليمة من الارجاس والانجاس .

وقد قسمت سورة التوبة من جراء هذا الظهور على مقاطع او نصوص لكل منها موضوع تتحدث عنه. تنسب جميعها في الغرض العام الذي تدعو له اليه وهو :

١- الحديث عن المشركين و فعالهم وجزائهم .

٢- الحديث عن أهل الكتاب ذكر أعمالهم وصفاتهم وجزائهم .

٣- رجوع الحديث الى المشركين ولكن بفعل اخر .

٤- الحديث عن طائفة من المؤمنين قد اقترب فعلهم من فعل المنافقين .

٥- الحديث عن المنافقين وبيان أحوالهم وأحكامهم .

٦- الحديث عن الاعراب باقسامهم الثلاثة .

٧- الحديث عن الاستغفار .

٨- الحديث عن التوبة .

٩- الحديث عن قتال من يليهم من الكفار .

١٠- خاتمة تصف أخلاق الرسول (ﷺ) وصفا رائعا .

وسنأخذ كل مقطوعة ، ويبين روابطها الداخلية وكيفية ارتباطها الخارجي مع غيرها .

١ . المشركون (١ - ٢٨) الآيات

يتضمن هذا النص مجموعة من أفعالهم وأعمالهم ، والحكم عليها . وفيها بعض المتضادات بين المفاهيم ، لان نفي خصلة او منقبة يستلزم اثبات ما يضدها لانها من الأمور التي يتبادر الذهن الى معرفتها ، فذكر الكفر يستلزم ذكر الايمان وذكر النار واهلها يستلزم ذكر الجنة واهلها ، لان اللفظ يستدعي نقيضه بالتداعي او الايحاء وهكذا تتفاعل المفاهيم فيما بينها وتتواصل الجمل خدمة للغرض الام .

فقراتها :

قسم هذا النص على فقرات هي :

أ . نقض العهود والمواثيق وإقالة الصلح .

في هذا الفقرة حديث عن الأثر الأول من آثارهم وهو نقض العهود والمواثيق، وما ترتب على هذا الأثر من إعلان البراءة من الله ورسوله وتبليغهم ذلك يوم الحج الأكبر واجلائهم عن البلاد في غضون أربعة أشهر الا الذين لم ينقضوا عهدكم ، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا لهم عهدهم .

هذه الفقرة تقسم المشركين على قسمين من حيث النقض وعدمه ، وقد ترابطا بالمقابلة او بالعموم والخصوص .

ب . الحكم بقتالهم

أمر الله تعالى بقتالهم وجهادهم ، بعد انقضاء المدة، لانهم كفروا بآيات الله ، واشتروا بها ثمنا قليلا ، وهموا بإخراج الرسول (ﷺ) فأخبرهم الله انه سيعذبهم على أيديهم ، ويذهب بغيض قلوبهم ويشفي صدور المؤمنين بهذا الجهاد ، ليعلم من يتبع الرسول (ﷺ) والذين امنوا .

ج . الأعمال الشاهدة على كفرهم ونفي مناقبهم

النية مقدمة لنجاح العمل ، وتحقق أهدافه وأغراضه فلا يتحقق العمل مجردا عن النية ، فهي روح العمل وباطنه والا فالعمل من حيث الظاهر واحد لكنه يختلف من حيث النية ، وبه يتميز الرياء من الإخلاص .

وفي المقام التعمير بمعزل عن الأيمان ، وهو عمل صالحي في ظاهره ، طالحي في باطنه ، فالعمارة وهي حسن فعلي ينافي عبادة الأصنام وهو قبح فاعلي . وهما لا يجتمعان بحال بل هو عين الكفر فنفى الله عنهم التعمير الحقيقي وهذا يستلزم التحقق الفعلي لغيرهم وهنا نقطة الانقلاب بين الكفر والأيمان ، فالصقه الله بالمؤمنين بالله واليوم الاخر والذين أقاموا الصلاة .... ثم فصل الله عز وجل عندما جعل الأيمان في الذروة العليا فلا يدانيها التعمير والسقاية فذكر استحقاقهم وجزاءهم. ثم حذرهم من إتباع المشركين من ذوي القربة، لان الأيمان الحقيقي هو التشبث بالله ورسوله والجهاد في سبيله وهو اوج ما يصل اليه المؤمن من حب بعد نبذ كل ما يحجبه عن محبوبه كالأبناء والآباء والأخوان وغيرها . فيسعى الله لرضاه بنصره وإنزال السكينة ، ويؤيده بجنوده ، واين الحب والارتباط من هذا .

د . الحكم بنجاستهم

ان الحكم بالنجاسة يستلزم الاجلاء والحرمان من المسجد الحرام وان كانوا من ذوي القربى ، ولا تخشوا في ذلك عيلة ، لان الله سيغنيكم من فضله حتى يعلم اهل الايمان ان النجاسة امر عظيم وخطب جسيم فوق ما نتصوره من مصالحكم والله اعلم بما يصلحكم ، وليس هذا غريبا ً لانه قد نصركم في مواطن كثيرة .

الربط في هذه المقطوعة :

في هذا النص تسهم جملة من الروابط - تظهر من خلال الجدول - في اتساق وانتظام النص، وجعله وحدة قائمة بذاتها تتمحور حول قطب واحد هو (المشركون) .

فقد بدأ الحديث عن نقض عهودهم وما ترتب عليه من لدن الرسول وهو الامر بالجهاد ، وبين السبب العام لذلك ثم بين بعض ادلة كفرهم وادعائهم الايمان وهم كافرون ، وضرب لذلك عمارة المسجد ثم بين عقبها العمارة الحقيقية ، ثم نهاهم

عن الركون اليهم ، وان كانوا ذوا قربى ، فليس حبهم اقوى من حب الله ثم بين مصداق ذلك وهو النصر وانزال السكينة ، ثم بين نجاستهم ، لاجلائهم عن المسجد وان كانوا من ذوي القربى .

٢ . أهل الكتاب أعمالهم وصفاتهم وجزاؤهم (٢٩ - ٣٥)

تحدث الله عن أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر ولا يدينون دين الحق ، وقد فرض عليهم القتال او دفع الجزية مبينا ً سبب ذلك ، فاليهود وهم من جملة أهل الكتاب جعلوا عزيزا ً ابن الله ، والنصارى جعلوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عن ذلك ، فهم والمشركون سواء في كفرهم أولئك يعبدون اللات والعزى وهم يجعلون لله الأبناء ، وفعلوا ذلك لانهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ً من دون الله يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يريدون ان يطفئوا نور الله ، والله متمم نوره ولو كره الكافرون ، ثم انتقل الحديث الى بيان صفتهم وجزائهم ، فهم يكنزون الذهب والفضة في الدنيا ، وباطنه نار تكوى جباههم وجنوبهم تهكما ً بهم وتسلية للرسول (ﷺ) .

ارتباطها الداخلي : ارتبط هذا النص داخلياً بجملة من الروابط التي مر ذكرها سابقاً ، لكن بنسب متفاوتة ستجلى من خلال الجدول . فارتبطت من جراها الجمل والآيات وتمحورت حول قطب الحديث في النص وهو (أهل الكتاب) .

ارتباطها الخارجي : ارتبط هذا النص بالذي قبله بوسيلة ربط خارجية وهي إلحاق النظير بالنظير ، الكفر بالكفر ، لانهما مشتركان في عنادهما عن الحق، وانغماسهم في الباطل ، فحصل اتساق السياق من خلال ذكر أنموذجين للشر والرذيلة مع جملة من أعمالهم وجزائهم للوصول والمساهمة في غرض السورة الرئيس .

٣ . المرجعية بفعل اخر (٣٦ - ٣٧)

ذكر الله عز وجل الأشهر الحرم ، وخص أربعة منها حرما ، لا يجوز القتال فيها الا من كان ظالما لنفسه. ثم أعقبها بأفعال المشركين إزاءها يؤخرونها ويقدمونها على وفق حاجاتهم ومصالحهم فهم يضلون به كثيرا ً من الناس ، لأنهم

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليوافقوا الأشهر من حيث الحلية والحرمة ، ذلك يزين لهم الشيطان سوء عملهم فهم ظالمون .

الربط الداخلي : حصل اتساق النص وتمحوره حول عنصر واحد جملة من الوسائل الرابطة .

الربط الخارجي : لا يخرج هذا الربط عن المماثلة والمشابهة يقول الطبرسي : ((لما ذكر الله سبحانه وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير إخراج الزكاة وغيرها من حقوق الله منه اقتضى ذلك ان يذكر النهي عن مثل حاله وهو الظلم في الأشهر الحرم الذي يؤدي الى مثل حاله او شر منه))[٣٨] . وقال ابو حيان : ((لما ذكر أنواع من تباع اهل الشرك . وأهل الكتاب ذكر أيضاً نوعاً منه وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى، لانه حكم في وقت بحكم خاص ، فاذا غير ذلك الوقت غيروا حكم الله)) [٣٩] .

اما المراغي فقد جعل عودة الكلام الى المشركين من قبيل الاستطراد اقتضاه ما قبله وهو حكم قتال المشركين [٤٠] .

أذاً حصل تعالق في أجزاء هذه النصوص من الخارج من خلال المشابهة ببعض الأحكام التي تخص الطرفين كالظلم والقبح . وهذا بدوره يجعل النص متسقا ومنسجماً ومنتظماً مع ما قبله ، ومرتباً بعناية دقيقة . لان هذه النصوص ترمي الى هدف واحد وغاية واحده .

٤ . الحديث عن الطائفة التي اقترب فعلها من فعل المنافقين (٣٨ - ٤٣)

تتضمن هذه المقطوعة الحديث عن الجهاد ،وموقف المؤمنين منه من حيث التلبية والتخاذل ، فقد أمرهم الله بالجهاد في غزوة تبوك [٤١] ، فتخاذلوا ، فأفتتح الله هذا النص بتوبيخهم وعتابهم من جراء ذلك ، لأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، ويشتد التوبيخ عندما يخاطبهم الله الا تنصروه فقد نصره الله ، وضرب لذلك مصداقاً فعلياً في قصته (ﷺ) مع ابي بكر (رضي الله عنه) فهذا الأمر المولوي

للاختبار والامتحان لإظهار أهل الأيمان من أهل النفاق والعصيان ، وليتبين الذين صدقوا من الذين كذبوا ، وهي نقطة الانقلاب والتحول من الأيمان الى النفاق .

الربط الداخلي : لقد حدث ارتباط هذا الحديث بالبؤرة وهي طائفة مخصوصة تقمصوا بزة النفاق فأصبحوا في زمرتهم .

الربط الخارجي : ان الله عز وجل امر بجهاد المشركين جميعا في المقطع المتقدم وفي هذا المقطع فصل حال المؤمنين من حيث الامتثال والتخاذل والتثاقل. فالامر بالجهاد وتحققه الفعلي يكشف عن طائفة كانت تتستر بالايمان وهم منافقون كاذبون يريدون غنيمة حاضرة او عرضا من الدنيا بدل قرة العين ، فتوحد السياق حصل من قبيل ذكر المقدمة ونتيجتها .

وقد قال المراغي في مناسبتها لما قبلها . ان الكلام السابق كان في حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين في العقائد والأعمال والفضائل التي تهذب النفوس وتزكيها . والكلام هنا في غزوة تبوك والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى وبهذا حصل الارتباط[٤٢] .

٥ . الحديث عن المنافقين (٤٤ - ٨٩)

ان هذه الطائفة قد قسمها لله من حيث أفعالهم على أصناف وقد درج الله عز وجل بعد ذكر كل طائفة صفات عامة ، وإنما ذكر ذلك تنبيها للعباد ان طرق الباطل كثيرة ودواعيها رمة وهي :

أ . ذكر علاماتهم من حيث الامتثال لقول الرسول ، والاستئذان لهم في القعود عن الجهاد . غرتهم الحياة الدنيا لانهم لو أرادوا الخروج لا عدوا له ، وهم في ذلك لا يزيدونكم الا خبالا ويوقعونكم في الفتنة .

ب . ذكر طائفة أخرى تلتمس الاعاذير والقعود عن الجهاد ، خشية الفتنة . كهلاك الأهل والمال او الافتتان بالنساء [٤٣] وهذا هو العصيان بعينه . هذا ظاهرهم اما باطنهم فهو الفرح والحبور وضرر الرسول (ﷺ) والحزن والغم ان أصاب الظفر ، وهم في ذلك يقولون قد أخذنا حذرنا واحترزنا وهم فرحون ... فأخبر

الله نبيه اثر هذه النوايا انه لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم فانتظروا وسننتظر لمن الفوز والظفر . ولمن الخسر . ثم اخبر تعالى نتيجة هذا الفعل وهو عدم تقبل صدقاتهم ، لانهم كفروا بالله ورسوله ، لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى . يريدون إرضاءكم في قعودهم .

ولما قطع الله رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة بيّن ان الأشياء التي يظنونها من باب منافع الدنيا جعلها الله تعالى اسباب لعذابهم بها [٤٤]. فلا تصدقوهم وان اقسموا ، لانهم كاذبون ولو وجدوا من يلوذون اليه لفروا منكم فراراً .

ج . طائفة اخرى منهم تبحث عن عيوبكم في الصدقات . يبتغون نصيبهم فأن اعطوا منها رضوا ، وان منعوا اذاً هم يسخطون .

يتبعونهم في حالة اليسر ، ولا يتبعونهم في حالة العسر والشدة . ثم انتقل الحديث الى بيان اصحابها وهنا نقطة الانقلاب من النفاق الى الايمان . وهم الفقراء .

د . وطائفة أخرى تعيب الرسول وتقول هو اذن صاغية يصدق كل ما نقوله ثم فسر كونه اذن خير بانه يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة ، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار وهو رحمة لمن امن منكم[٤٥]. فذكر الله بعدها انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم. ثم انتقل الله عز وجل الى بيان حالهم وتخوفهم من انزال سورة بحقهم تنبئهم بما يكنون في صدورهم من الكفر والاستهزاء وحينئذ لا ينفعهم اعتذارهم لأنهم قوم مجرمون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فبشرهم الله بالنار، وقد سبقهم الى ذلك قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم، وأصحاب مدين الذين كانوا اشد منهم قوة ، ثم تخلص عز وجل الى ذكر أعمال الطرف الآخر (المؤمنين) وما ترتب لهم من جزاء ، ثم أعقب بعد ان بين طرفي النقيض بقتال أهل الباطل بان أعمالهم لم تتمحض للأيمان ، فهم يقولون الكفر ويحلفون انهم ما قالوه .

فالعقل يحكم بضرورة استئصال الامراض المتفشية التي تشكل خطراً على سلامة الحق والعدل . فلا يبرؤون الا بالتوبة او القتل .

هـ . بيان حال طائفة قد عاهدت الله على التصدق والإنفاق والكون مع الصالحين من أتاهم الله من فضله ، فلما أتاهم اذ هم يعرضون فأعقبهم الله نفاقا فأخبر الله نبيه بان الاستغفار لن ينفعه والله لا يهدي الفاسقين .

ثم ذكر الله في ختام هذه الفقرة المخلفين عن غزوة تبوك الذين يكرهون الجهاد والرسول ، ويلتمسون لذلك الأعذار من شدة الحر وغيرها . فأخبر الله نبيه : ان ارجعك الله لهم واستأذنوك فقل أنكم لن تخرجوا معي ابدا ، ولن تقاتلوا معي ، ثم نهاه عن الصلاة لهم لانهم كافرون ، ثم ذكر حال أولي الطول منهم في قعودهم مع الخالقين حتى تكون مزاوجة بين أغنيائهم وأغنياء المسلمين أولئك لهم أموال الدنيا وهم ملاك الاخرة . وهذا الخاتمة بمنزلة الاجمال لحال المنافقين او لتوافق المطلع بالخاتمة للايحاء بشدة التماسك والمناسبة .

الربط الداخلي : على هذا المستوى هناك روابط كثيرة ستجلى من خلال الجدول ، لكن الملاحظ في ترابط فقراتها غالبا ما يكون بضمير الاحالة لذا تجدهم فيها مقسمين منهم ومنهم ومنهم . وهذا ما يجعل السياق واحدا ومنسجما تمام الانسجام ، وهذا بدوره يجعل القطب اكثر ظهورا ، لان تعالق الجزيئات الداخلية من اجل ابراز طاقة هذا العنصر وهنا قد تحقق بالسلب، لما لهذا العنصر من أعمال قبيحة وأفعال ذميمة .

الربط الخارجي : ان ارتباط هذا النص بما قبله هو من قبيل الحاق النظير بالنظير او هو بمثابة المقدمة التي تترشح عنها النتيجة ، او قل ان ارتباطها بما قبلها هو من قبيل ذكر اعراض المرض وبداياته ، ومن ثم تحققه الفعلي ، وانتشاره الكلي ، فلا نجد تجافيا بين فقرات النص الكبير تجعل الذهن مشدوها سادرا ، فحصل الانسجام القرآني بين هذه الموضوعات الفرعية لانها تعطي وظائف متشابهة للنص القرآني الكبير الذي يستفيد من هذه الموضوعات للوصول الى غايته وهدفه .

٦ . الحديث عن الاعراب (٩٠ - ١١٢)

من خلال التأمل في هذه الفقرة نجد ان القران قد قسمهم على اصناف ثلاثة :

أ . الاولى تلتمس العذر للقعود عن سبيل الله مع الذين عفا الله عنهم .

ب . الثانية لا تلتمس العذر بل انهم كذبوا الله ورسوله ، وقعدوا عن الخروج .

بعد ذكر هاتين الطائفتين يبين الله عز وجل المعذورين حقا وهم المرضى والضعفاء والذين لم يجد الرسول ما يحملهم عليه . فهؤلاء لا سبيل عليهم انما السبيل على الذين رضوا مع الخوالف . فلا تصدقهم واعرض عنهم ، لان الله أعلمهم فانما اوجد التشريع لبيان علة ذلك وهو الكفر والنفاق . واجلى مصداق لهم هو تقديم الأموال لمغارمهم بدلا من سبيل الله .

ج. الطائفة الثالثة وهم المؤمنون بالله واليوم الأخر الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سيدخلهم الله في رحمته، وقد قرنهم الله بالسابقين من المهاجرين والأنصار ، وهذا الانتقال هو الحاق النظير بالنظير .

قال ابو حيان : لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين المتصدقين وما اعد لهم من النعيم بين حال هؤلاء السابقين وما اعد لهم وشتان ما بينهما [٤٦] .

ثم انتقل الحديث الى المنافقين حولهم من الأعراب وفي المدينة لا يعلمونهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم فأمر الله النبي (ﷺ) ان يأخذ منهم صدقة تطهرهم وتزكيهم لان الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده ، وآخرون أمرهم عند الله اما يتوب عليهم وأما يعذبهم فالله اعلم بحالهم .

يقول المراغي : هنا بيان للمتخلفين عن غزوة تبوك وهم الذين مردوا على النفاق ، والمؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم والمؤمنون الذين حاروا في أمرهم لم يعتذروا للرسول فأرجأوا توبتهم إلى الله [٤٧] . ثم يرجع الحديث مرة أخرى الى ذكر سوأة اخرى للمنافقين ، وفيه يتجلى تأسيس الأيمان الصالح من الطالح ، فالمسجد أنما يؤسس للتقوى لا للكفر والنفاق فالله لا يحب الا المتطهرين ، ثم أعقب هذا الأساس الشيطاني الأساس الرحماني المؤمنون التائبون العابدون الذين يريدون

الوصول إلى غايتهم وهي الجنة ، وقد حصل تعالق هذه الأجزاء بالمقابلة او التضاد لانه كما قيل وبضدها تعرف الأشياء .

الربط الداخلي : لا ريب ان هذا النص قد تم باستعمال جملة من الروابط كالإحالة والحروف والتكرار وغيرها، فضلاً عن العموم والمقابلة في فقراتها لاندراج الكل تحت قطب واحد وهو الاعراب وهذا القطب بدوره يتفرع الى أقسام متقابلة من حيث النفاق والأيمان، للاعلام بان الأعراب ليس كلهم منافقين، فيلحق الله عز وجل كل قسم بنظيره، فأهل الايمان يلحقهم بأهل الايمان، والمنافقون يلحقهم بأقرانهم، فيتحد بذلك سياق النص وينسجم ، لانه يصب في حقل دلالي واحد ، اما تفرعاته فهو لاقتضاء بعض جزيئات النص للتبيين والتوضيح .

الربط الخارجي : كان الحديث في النص السابق عن المنافقين بالدلالة المطابقية، وهنا الحديث عن النفاق بالدلالة التضمنية ، فالنصان يجمعهما سياق واحد وهو الحديث عن أمهات الرذائل والموبقات وقد مهد لهذا الانسجام والاتساق التناظر والتماثل في الوظيفة التي يؤديها النصان.

فلما بين الله صفات المنافقين وهم في افعالهم أصناف ، بين صفات الاعراب من حيث التماس الأعذار والتخلف عن الجهاد والكفر بالله ومحاددة الله والرسول .

قال ابو حيان : لما ذكر الله عز وجل أحوال المنافقين الذين بالمدينة شرح أحوال المنافقين من الأعراب [٤٨] فكلتا الطائفتين تقتضي من الإسلام اتخاذ موقف إزاء أفعالهم وأعمالهم التي تعرقل توسع بيضة الإسلام .

٧. الحديث عن الاستغفار (١١٣-١١٧) :

بعد ان ذكر الله صفات المشركين والمنافقين نهى عن الاستغفار لهم ، وان كانوا ذوي القربى بعدما تبين انهم من أصحاب السعير ، وضرب لذلك قصة إبراهيم (عليه السلام) في استغفاره تذكرة لهم ، بان الأنبياء فعلوا ذلك فكيف بكم انتم ، والله في كل ذلك لا يريد ظلما ً للعباد . فهو لا يظلم أحدا ً حتى يعلم انهم عصاة مردة ، وليس

هذا ببعيد فهو القادر على كل شيء له ملك السموات والأرض يحي ويميت فلا تنحصر دونه التقوى .

الربط الخارجي : يقول الطبرسي لما تقدم ذكر الكفار والمنافقين والمنع من موالاته والصلاة عليهم والقيام على قبرهم للدعاء نهى عن الدعاء لهم بعد موتهم ، ولما نهى الله النبي والمؤمنين عن الاستغفار ذكر قصة ابراهيم وعذره في الاستغفار [٤٩] .

ارتباط هذا السياق بما قبله هو ارتباط تتميمي ، وهو ان ذكر المرض واعراضه يستلزم التجنب والاعراض عنه لان الاثر ناجع لا يزيله دواء ولا علاج ، فالكفر عندهم قد اصبح ملكة غير قابله للزوال كملكة السخاء والشجاعة فلا يفيد معه استغفار ولا يزيله دعاء ولا صلاة الا النار التي تخلص الشوائب من الذهب ، والنجاسة من الطهارة وهذا خاص بيوم القيامة .

٨. الحديث عن التوبة (١١٧-١٢٢) :

يقول الطبرسي : لما ذكر الله عز وجل ان له ملك السموات والأرض ولا ناصر لأحد دونه بين عقبيه رحمته بالمؤمنين في قبول توبتهم [٥٠] . وقال ابو حيان : لما تقدم الكلام في أحوال المنافقين من تخلفهم عن غزوة تبوك واستطرد الى تقسيم المنافقين الى اعراب وغيرهم، وذكر ما فعلوه من مسجد الضرار وذكر مبايعة المؤمنين الله في الجهاد وأثنى عليهم وانه ينبغي ان يباينوا المشركين حتى الذين ماتوا منهم بترك الاستغفار ، عاد الى ذكر ما بقي من غزوة تبوك وهذه شنشنة كلام العرب [٥١] .

فبعد ان تاب الله عليهم وعلى الثلاثة الذين خلفوا امرهم بالكون مع الصادقين. وهذا يقتضي موافقة الرسول وصحبته في غزواته ، فعوتب العتاب الشديد من تخلف عنه في غزوه لصحبته وبذل النفوس دونه [٥٢] وهذا يتحقق اما بالجهاد في سبيله ، واما بالتفقه والعلم لرفع راية الاسلام [٥٣] حتى يتحقق توازن من جنبتين السيف والقلم والعلم والعمل .

٩. الامر بقتال من يليهم من الكفار (١٢٣-١٢٧) :

لما خص الله تعالى على التفقه في الدين وحرض على رحلة طائفة منهم ، امرهم تعالى بقتال من يليهم من الكفار، فيجمع من الجهاد جهاد الحجة وجهاد السيف[٥٤] لانهم الذين يستهزئون بالله واياته فزادهم الله مرضا ً وماتوا وهم كفار .

١٠. خاتمة تصف أخلاق الرسول (ﷺ) وصفاً رائعاً [٥٥]

ترتبط الخاتمة بما قبلها في وصف فعلي رائع لأخلاق الرسول مؤكدة ببراءة الله ورسوله من المشركين .

قال أبو حيان : انه عز وجل لما بدأ السورة ببراءة الله والرسول من المشركين وقص فيها أحوال المنافقين شيئا ً فشيئا ً خاطب العرب على سبيل تعدد النعم والمن عليهم لكونه جاءهم رسول من جنسهم وكونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من العرب [٥٦] .

ان توحد السياق في هذه الفقرات الاخيرة هو بالانتقال والتدرج والارتقاء من التوبة النصوح الى مصاف المؤمنين ، والتضامن لأمر الرسول المتمثل بجهاد الكفار لأنه فسطاط لا أيمان معه فهما لا يجتمعان بحال ، ثم بين الله عز وجل ان هؤلاء تمحضوا للكفر وتعنتوا للباطل بعد ان بعث لهم رسول من أنفسهم يعز عليه من سوء حالهم المفضية الى النار .

خلاصة ما اقوله في السورة :

ان الملاحظ في هذا النص الكبير (سورة التوبة) يجد ان السياق يجري على سمت واحد ونمط واحد في الانتقال والتدرج بين موضوعاتها القائم على أساس الفعل المعاكس لحركة الإسلام .

فالمشركون هم بذرة الكفر وتأصله قد بدأ بهم افتتاح السورة لأنهم لا دين لهم يعبدون الأصنام ، ثم انتقل الحديث عن سابقهم بأنهم أصحاب كتاب وتشريع ، ثم انتقل الحديث الى المنافقين وهم مسلمون لكنهم لم يخلصوا للايمان يقدمون مصالحهم على مصالح الإسلام ويظهرون خلاف ما يكتمون وهذه الموضوعات يجمعها مضمون

واحد وهو الكفر والعداء للإسلام فحصل اتساق السياق وانسجامه ، واستفاد النص الكبير من هذه الوظائف التي تحملها في تقرير الغر ض الأم في السورة ، اما الفقرات الأخرى فهي ملازمة لهذه الموضوعات ومتممة لهدف السورة من أمثال النهي عن الاستغفار والتوبة على من أحسن باطنه . وفي كل هذا تتجلى صورة الرسول المربي الذي يسعى من اجل حماية هذه الطوائف من لهيب سقر لكنهم قابلوه الجحود والنكران .

الجداول التي تبين الروابط الداخلية في سورة التوبة :

المقطع الاول

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٦٤	٦٨	٩	٧ الآية ٢، ٣، ٥، ٧، ١١، ١٣	٤ الآية ٨ ، ١٦
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
٦	١٣٥	١	٢		٥ الآية٧، ١٠، ١٣، ٢٠، ٢١
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
٨٨	٧	١٨	١	٣

الملاحظ في هذا المقطع ان الربط بالإسناد جاء بالدرجة الأولى وبعده الربط بالضمير ، ثم حروف الجر والعطف .

وهذا طبيعي ، لانه لا تكاد تخلو جملة من إسناد بل هو عمدة الكلام وهو هنا بنوعيه يدل على ثبوت بعض الأحكام التي تخصهم، فضلاً عن الحركة وكثرة الأحداث المنسوبة اليهم، والمترتبة عليهم، فالإسناد بنوعيه قد اقتضاه المقام، فالثبوت

ضروري في بيان بعض مميزاتها التي صارت ملكة غير قابلة للزوال ، لكن هذا قليل بالنسبة للجملة الفعلية لانها عبارة عن أحداث تنقضي وتتجدد وهي في المقام أحداث وأفعال قاموا بها ، ثم يأتي الضمير بالمرتبة الثانية وهو يكشف لنا عن المرجعية التي يؤول اليها الكلام وهذا ان دل فانما يدل على ان للكلام قطباً تدور حوله الآيات والجمل وتتمحور حوله وتشتد به ، وتنقل طاقتها اليه ، وهو بهذا يمثل أهم عنصر من عناصر اتساق الكلام وتوافقه وانسجامه ، ولولاه لما طفحت هذه العنوانات في السورة ، وتأتي بعده حروف العطف والجر التي غالباً ما تحتاج اليها الجمل لتتميم المعنى ، اما التكرار فهو العنصر الآخر الذي يسهم في اتساق النص وهو غالباً ما يظهر على شكل رؤوس ثلاثة ينتقل الكلام به من رأس الى رأس من أجل تشكيل النص، وهكذا تستمر العملية محققة التوازن، والانسجام في النص (الله ، الرسول ، المشركون) .

وفيه ايضاً تلعب فاء التفريع في تعالق اجزاء الكلام والنص ، اما الروابط الآخرى فتقل وتنضب في المقام .

المقطع الثاني :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٢٠	١٦	٢	١	١

الربط المعنوي					
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة ما قبلها()
١	٤٢				٤ الآية ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥

الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
٣٤	١	٦	–	–

هذا المقطع على قصره يحاكي سابقه من حيث عدد الروابط المشكلة للنص والمساعدة على اتساقه، ما خلا التكرار الذي تمركز حول عناصر أخرى هي (الأحبار، الرهبان ، الله ، المسيح ، الرسول) .

المقطع الثالث :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٨	٥		٢ الآية ٣١ ،٣٧	
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
١	٢٠				١ الآية ٣٧
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
١٠	١	٥		

هذا المقطع يكاد يكون مشابهاً من حيث استعمال الروابط وكثرتها .

المقطع الرابع :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
١١	١٢	٥	٢ الآية ٣٨ ، ٤٠	٢ الآية ٤٠ ، ٤٢

الربط المعنوي					
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
	٤٣	١			٢ الآية ٣٩ ، ٤٣

الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
٢٥	١	٧		١

ان نسبة الإسناد وحروف الجر والعطف، والضمير في الروابط تكاد تكون مستقرة ومسيطرة على اتساق النص، فحروف الجر تتناسب تناسباً طردياً مع الإسناد، اما حروف العطف وأكثرها هو الواو يدل على كثرة اقتران أفعالهم وصفاتهم الذميمة وما يقابلها من الصفات المضادة، فهي تعمل على الجمع بينهما، اما الضمير ، فأن الغالبية يكون مرجعها الى القطب المتحدث عنه في النص ، فتتآزر هذه الروابط من أجل تشكيل النص واتساقه وانسجامه ، وجريانه على سمت واحدة .

المقطع الخامس :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٦٩	١٠١	١٢	٩ الآية ٥١،٥٢،٤٥،٥٥،٥٦،٥٨، ٧٤،٨٢ ، ٨٧	٩ الآية ٤٨،٥٠،٥٤،٥٥،٧٦،٨ ٤،٨٥،٨٨

الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
١٠	١٨٠	٢١			٦ الآية ٤٤،٤٧،٥٠،٥٢،٥٧ ٥٩،٦٨

الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
١٥٩	٨	٢١	١	٢

هذا المقطع هو اكبر المقاطع في السورة وربما تجلى هذا النص بهذا المقدار لما لهذه الطائفة من خطر جسيم على الإسلام، لأنهم كافرون في الباطن مسلمون في الظاهر، وهذه عقبة يصعب إزالتها لأنهم يعملون على مستوى الظاهر ويكنون الباطن، ولهذا ركز القرآن عليهم لكشف مخططاتهم ودسائسهم، أظهرها من خلال حروف العطف التي تظهر كثرة مساوئهم وأفعالهم المنكرة بجمعها بحرف الجمع (الواو) ، فضلاً عن ثبوت هذه الأعمال الخبيثة المتجلية بالإسناد ، وكثرة أفعالهم المتصرمة الشديدة على الإسلام، والأخرى التي تتجدد، فضلاً عن موقف الإسلام منها، والمقابلات التي يجريها بينهم وبين المؤمنين .

وقد أسهم الضمير مساهمة فعالة في توحيد هذا القطب بكثرة الروافد القذرة التي تصب فيه ، مظهرة براثن الشر والرذيلة ، فضلاً عن الروابط الأخرى .

المقطع السادس :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٨٥	٥٠	١	٦ الآية ٩٣،٩٥،٩٦،١٠٥،١٠٨،١١١	٢ الآية ٩٢، ٩٣
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
٨	١٣٠	١			٣ الآية ٩٠،١٠٠، ١٠٨
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
٦٦	٢	١٤	٢	٣

في هذا المقطع نجد ان الإسناد يحتل الدرجة الأولى ، ثم يأتي بعده حروف الجر وهي تدل على كثرة المعاني المستفيدة من ربط الفعل بالاسم ، وأيضاً يدل على ان الإسناد عاجز في الغالب عن إيفاء الغرض دون التقييد بالحرف، ثم يأتي بعدها الضمير، وهو يجمع طاقات الجمل والآيات لتمحورها حول القطب (الإعراب)، ثم تأتي بعده حروف العطف، وغالباً ما يكون الحرف هو الواو ، الذي يجمع الصفات والأفعال كاشفاً بذلك عن حقيقة هذه الفئة ، وهكذا تقل الروابط تدريجياً إلى ان تغور.

المقطع السابع :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
١٢	٦	٢	١ الآية ١١٤	
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
	١٩				١ الآية ١١٦
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
١٣	٢	٣		

ان قصر هذا المقطع جعل روابطه اقل مما قبله ، وترتيبه متقارب الى حد ما لما قبله .

المقطع الثامن :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
٣٢	١٧	١	١ الآية ١١٢	
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
٣	٣٥				
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
٢٦	١	١٤	١	٢

لا تختلف هذه عما قبلها كثيراً .

المقطع التاسع :

الربط بالحروف				
حروف الجر	حروف العطف	حروف التلازم	فاء التفريع	واو الحال
١١	١٠	١	٢ الآية ١٢٤، ١٣٩	٢ الآية ١٢٤ ، ١٢٥
الربط المعنوي				
التعليل	الإسناد	جواب الطلب	العموم	إعادة الخبر بمعناه	التنزيل منزلة الأولى
	١٢٥				
الروابط الأخرى				
الضمير	الإشارة	التكرار	القسم	أسماء الشرط
١٩		١	١ الآية ١٢٨	٢

يكاد هذا المقطع يخلو عما قبله من حيث نسب الروابط في تشكيل النص وهو مقطع قصير، جاء الإسناد فيه بالدرجة الأولى وتلاه الضمير ثم اردفته حروف الجر فالعطف وهلم جرا .

اما الخاتمة فهي اقل بكثير مما سبق فقد احتل الإسناد الدرجة الأولى بعدد ٧ وتلاه الضمير وحروف الجر بعدده ....

ان هذه الجداول لا تمثل الإحصاء المطلق الجامع لجميع الروابط ، فهذا مما لا استطيع أثباته ، وقد استعنت في ذلك على كتب التفاسير لا سيما في الربط بالتعليل وتنزيل الجملة منزلة ما قبلها ، الخ .

وبعد إنتهاء البحث لابد من ختمه بأمور منها :

- وجود مستويات ثلاثة للكلام من جراء استعمال الروابط فيه تتمثل بالجملة (أصغر وحدة اخطارية) ، والتركيب (اقتران أو إمتزاج أو تعالق بين الجمل) والموضوع الذي يولد مقصدية الكلام .

ولكل نحوٍ من هذه المستويات روابط تجعل السياق مترابطاً منسجماً وتلتقي جميعاً في الربط الموضوعي ، لأنه يمثل المرحلة الأخيرة لمقصدية المنشىء في إنتاج كلامه . وبهذا يكون البحث قد أكد ان الربط في القرآن لا يقتصر على مستوى الجملة والتركيب بل تعداهما ليشمل جميع كلامه تعالى عبر مستوياته الثلاثة ، لأن القرآن يجسد قضية واحدة وهي ((كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور)) . فنجد أن جملة وآياته وسوره مترابطة للغرض المذكور .

- إن الحروف لا يمكن أن تكون جميعها للربط ، وإنما إستفدت من بعض الأقوال والإشارات التي تؤكد أن بعضها هو المستعمل للربط كحروف العطف والجر والشرط ، فضلاً عن الروابط الأخرى .

- إستطاع البحث من الروابط التي استعملها وبين وظيفتها في القرآن الكريم ، أن يستوعب الحياة من جميع جوانبها ، الاقتصادية والثقافية والتشريعية والعقلية

والأخلاقية، فينتظم من جرائها السلوك الانساني ، وتتكافأ الفعاليات في الحياة ، فيحرز الانسان سعادته في الدارين .

- إن التراكيب التي لا يكون بعضها أجنبياً عن بعض لا تحتاج الى روابط حسية لأنها ممتزجة داخلياً ، فيستقل الذهن بالفهم من دون إستعمال الرابط الحسي .
- إن التراكيب والجمل التي تكون بينها علاقة سببية تصل الى درجة عالية من الترابط والاتساق معنوياً ، لأستحالة تخلف احدهما عن الآخر ، وإنما يستقل الذهن بفهم العلاقة السببية بين الطرفين لأنها علاقة قائمة على تصور الطرفين كليهما .
- إن النص الكبير مرتبط من جنبتين ، الأولى ترتبط بروابط داخلية والأخرى ترتبط بروابط خارجية . وبهذا إستطاع أن يسيطر على فقرات النص الداخلية والخارجية ، فأضحى النص من جرائها أكثر أتساقاً وانسجاماً .
- إن القيمة الكبرى للروابط تتجلى في الإسناد لأنه أقل معنى معبر يتكون منه الكلام وتأتي بعده حروف الجر التي هي مبينات وموضحات لهذا الإسناد ، وحروف العطف التي تجعل الصفات كثيرة في النص ، فضلاً عن كثرة الاحداث المترابطة بحرف الجمع الواو .
- تسهم فاء التفريع إسهاماً كبيراً في جعل النص مترابطاً ومتسقاً لأنها تفرع جملة على جملة أو تركيب على تركيب ، فيحصل التعالق في أثناء الكلام بسبب هذا التقريع .
- إن التكرار مطلق من جملة الروابط التي تجعل النص يدور حول قطب واحد ومحور واحد ، تتكثف المعاني والأفكار حوله من أجل إجلاء الهدف والغرض من الكلام عند المنشىء .
- إن الباحثين استخرجا جملة من العنوانات التي تجعل النص منسجماً ، محققة بذلك الربط الموضوعي ، وهذه العنوانات هي عبارة عن موضوعات فرعية مترابطة داخلياً تحمل بين تضاعفيها فكرة واحدة وغرضاً واحداً ، تصب مضامينها في غرض السورة العام ، كالقصة والحوار والمثل ... وترتبط

خارجياً ببعض الوسائل كالتضاد والتناظر فضلاً عن الحدث والواقع الخارجي ، والعنوان الخارجي .

الهوامـــش :

١- لسان العرب ٩ / ١٧٣ .

٢- التبيان في تفسير القرآن ٣ / ٩٥ .

٣- الربط في الجملة العربية ١٦ .

٤- لسانيات النص ١٦ ـ ٢٦ ، وينظر اللغة العربية ومبناها ٢١٣ ، وما بعدها والنحو الوصفي ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

٥- ينظر دلائل الاعجاز ١٧٠ ـ ١٧٨ .

٦- كان النثر الجاهلي يتسم بشدة الايجاز والتزام السجع وبانعدام الترابط بين الفقرات وبالسطحية في تناول الموضوعات. ينظر المعجم المفصل ٢ / ٨٤٧.

٧- ينظر : مناهل العرفان ١ / ٢١١ ـ ٢١٢ .

٨- المعجم الفصل ٢ / ١٠٧٠ .

٩- ينظر الإتقان ١ / ٦٠ ـ ٦١ .

١٠- الإتقان ١ / ٦٠ .

* ان الكشف عن ترابط السورة من خلال القطب أفضل بكثير من تقسيمها على فقرات ، ينظر مستويات النظم في التركيب القرآني ١٤٠ ـ ١٤٣ .

١١- ينظر : صفوة تفاسير ١٧ / ٢٧ ـ ٤٨ ، ١٨ ـ ٥٥ .

١٢- ينظر : المعجم المفصل ٢ / ٩٧٩ .

١٣- التصوير الفني ١٢٠ ، التعبير الفني ٢١٥ ـ ١٢٦ المعاني الثانية ٢٢٨.

١٤- ينظر : مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ٢١٧ ـ ٢١٨.

١٥- نفسه ٢١٧ ـ ٢١٨ .

١٦- الحوار في القرآن الكريم ١٧ ـ ١٨ .